التكافل الاجتماعي
مظهر من مظاهر حماية حقوق الإنسان
في الإسلام

إدريس العلوي العبدلاوي

المبدأ الأساسي في الإسلام هو تحرير الإنسان وتكريمه

تنطلق الحقوق السياسية في الإسلام من مبدأ أساسي هو تحرير الإنسان وتكريمه، فمن أهم جوانب الرسالة الخالدة للشريعة الإسلامية التكفل بحماية الحقوق لأصحابها، وتقرير الحق بصورة واضحة، بحيث لا يكون وجوده محل جدل أو شك يذهب باستقراره، ثم حمايته واحترامه من الناس أجمعين، وتقرير الجزاء الملائم لمن يعتدي عليه أو ينتقص منه.

والحق في الفقه الإسلامي ذو معنى شامل، يدخل فيه معنى الحرية فتكون الحريات العامة نوعا من الحقوق، فإذا ما ورد في الشريعة الإسلامية أو الفقه الإسلامي كلمة الحق، فقد تعني حقا ماليا، أو حقا لله، أو حقا شخصيا، أو حرية من الحريات، بحسب ما يدل عليه معناها في كل مقام.

ويلاحظ أن دائرة حقوق الله تعالى في الفقه الإسلامي واسعة تتلاقى مع دائرة القانون العام، بينما يدخل حق العبد في دائرة القانون الخاص.

وتقرير الحقوق والواجبات في الإسلام مصدره الله عز وجل الذي هو الحق المبين وتشريعه هو العدل المطلق الذي لا يُحابى ولا يُتحامل.

والإيمان بالله خير ضمان لحقوق الإنسان من حيث تقريرها، ومن حيث إنفاذها، وتدعيمها، والنضال من أجلها.

لقد خلق الله الإنسان واستخلفه من الأرض، ينفذ أحكامه، ويطبق شرائعه، وكلفه بالسعي فيها وعمارتها، منحه العقل الذي يدرك به بعض أسراره في كونه، إذا أطال النظر، وأمعن التفكير، وسخَّر له كثيرا من مخلوقاته.

ويتضح من خلال استقراء الأحكام الشرعية في المجالات المتعددة، أن تكاليف الشريعة ترجع إلى حفظ مقاصدها في تنظيم الخلق، وهذه المقاصد كما فصلها الإمام الشاطبي لا تعدو ثلاثة أقسام : ضرورية، وحاجية، وتحسينية.

وفي دائرة هذه المقاصد تروج حقوق الإنسان وقد لاح لواؤها وبزغت معالمها.

ويقصد بحقوق الإنسان في الإسلام ببساطة أن الإنسان لمجرد كونه إنسانا أي بشرا بصرف النظر عن جنسيته أو ديانته أو أصله العرقي أو القومي أو وضعه الاجتماعي أو الاقتصادي يملك حقوقا طبيعية به حتى قبل أن يكون عضوا في مجتمع معين.

وبالرغم مما تضمنه الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، والاتفاقيات الدولية اللاحقة له، فإن دين الإسلام كان الأسبق في إعلان تلك الحقوق بمفاهيمها الكاملة، وضماناتها الشاملة في أحسن صورة وأتم بيان، وكان الأسبق في ربط الحقوق والحريات العاملة بوظيفتها الاجتماعية، إذ أناط بهذه الحريات تحقيق المصلحة العامة وابتغاء وجه الباري سبحانه ومهما سما العقل البشري في هذا المجال، فهو عاجز وقاصر عما أرشد إليه القرآن من أصول ومبادئ خالدة على مر الزمان.

إن مجيء الإسلام في حد ذاته يعتبر ثورة شاملة على جميع الأوضاع الفاسدة المزرية التي بلغتها الإنسانية في عهود مظلمة سابقة، حيث أهدرت فيها حقوق الفرد وامتهنت كرامته، وكان الإسلام حاميا شخصية الإنسان بشقيها المادي والروحي ضمانا لعدم التفكك الاجتماعي، والانحلال الخلقي، موازنا بين مصلحة الفرد في صيانة حقوقه الأساسية، ومصلحة الجماعة في التجريم والعقاب، فالدعوة الإسلامية دعوة عالمية موجهة للناس كافة، وتقوم على الكرامة، والحرية، والعدل، والسيادة، والمساواة، وفي إطار من هذه الشمولية، كفل الإسلام للإنسان الحق في الحياة، والكرامة والعدل، والمساواة، وحق العمل، والأمان، وحق الهجرة، كما كفل للإنسان حرية التعبير عن إرادته ليعيش مكرما شريفا، كما أقر له حرية الخيار في الاجتماع مع الآخرين والافتراق عنهم في حدود المصلحة المشتركة التي تقررها الأغلبية، والإرادة الاختيارية هي المبرر لوجود الكيان السياسي.

كرامة الإنسان واضحة من منظور الإسلام وفي بيان القرآن

إن أول سورة نزلت من سور القرآن الكريم، كانت تحمل من معاني التكريم الإنساني، والاهتمام بشأنه، وتلمح إلى آثار تكريم الله سبحانه لهذا الإنسان، إذ بمحض الكرم وُجد، وبخالص الجود والعطاء اهتدى ورشد، كما تشير هذه السورة التي بدأت بها الرسالة المحمدية إلى سبق العناية الإلهية بهذا الإنسان، على سائر المخلوقات فجعله مهذبا له قابلية للعلم والفهم.

﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، إقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم﴾[1].

لقد انطلقت الحقوق المدنية والسياسية في الإسلام من المبدأ الإسلامي الأساسي المتمثل في تكريم الإنسان وتحريره. وقد صرح الخالق العظيم سبحانه

بهذا التكريم، فقال تعالى : ﴿ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر، ورزقناهم من الطيبات وفضّلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا ﴾[2].

وهذه الآية من سورة الإسراء المكية، والقرآن المكي يتعلق في أغلبيته بتقرير العقيدة الإسلامية في النفوس، ودفاع عن الرسالة المحمدية، وعناية بأمور البعث والآخرة، وله تعلق آخر، وهو المبادئ الأخلاقية والإنسانية والاجتماعية.

ومن الآيات القرآنية الدالة في نفس المعنى على تكريم الله تعالى للإنسان وما أكثرها قوله تعالى :

1) ﴿هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا ﴾[3].

2) ﴿الله الذي خلق السموات والأرض، وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم، وسخّر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره، وسخّر لكم الأنهار، وسخّر لكم الشمس والقمر دائبين، وسخّر لكم الليل والنهار، وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدّوا نعمة الله لا تحصوها، إن الإنسان لظلوم كفار ﴾[4].

لقد كرّم الله الإنسان بالاستعدادات التي أودعها فطرته، والتي استأهل بها الخلافة في الأرض، يغير فيها ويبدل، وينتج فيها وينشئ، ويركب فيها ويحلل، ويبلغ بها الكمال المقدر للحياة، وكرّمه بتسخير القوى الكونية له في الأرض، وإمداده بعون القوى الكونية في الكواكب والأفلاك، وكرّمه بذلك الاستقبال الفخم الذي استقبله به الوجود، وبذلك الموكب الذي تسجد فيه الملائكة ويعلن فيه الخالق جل شأنه تكريم هذا الإنسان، وكرّمه بإعلان هذا التكريم كله في كتابه المنزّل من الملأ الأعلى.

وإن أكبر تكريم للإنسان هو تمتعه بنعمة العلم دون سائر المخلوقات.

النزعة الاجتماعية التنظيمية في الإسلام، لا توازن لمجتمع يعيش أفراده في قلق نفسي أو اضطراب روحي.

إن من أهم ما يميز الدين الإسلامي تنسيقه بين شؤون المادة وشؤون الروح، وبانطواء تعاليمه على مبادئ أساسية في التنظيم الاجتماعي بمعناه الشامل العميق.

والنزعة الاجتماعية التنظيمية في الإسلام، تورث الشعور بالسلام والطمأنينة، وتكون ناشئة عن تحديد العلاقة بين الفرد وذاته، وبين الفرد وفرد آخر، ثم بين الفرد وخلية بناها أو أسهم في بنائها، وأخيرا بين الفرد والدولة بما يضمن المعيشة المادية ويكفل العدالة الاجتماعية.

وتفسير التنظيم الاجتماعي على هذه الصورة ربما خصّ الفرد بشيء من العناية والاهتمام، وذلك في نظرنا أمر طبيعي، لا لأن الفرد أعظم من المجتمع، ولكن لأن المجتمع المتوازن إنما يتكون من الأفراد المتوازنين ، فلا توازن لمجتمع يعيش أفراده في قلق نفسي أو اضطراب روحي، ولذلك اتجهت إلى الأفراد وتكاليف الأديان السماوية، وتشريعات القوانين الوضعية.

التكافل الاجتماعي ضمان لحماية حقوق الإنسان في الإسلام

إن ما يضمن بقاء المجتمع قويا أن يكون فيه تكافل اجتماعي يقوم على أسس الإسلام وتعاليمه القويمة.

والتكافل هو التساند والتضامن، ويكون بين المجموعة الإنسانية التي تكون مجتمعا. وإذا قام هذا التكافل على أسس صحيحة ضمنت فيه عندئذ مصلحة الفرد والجماعة كما قال تعالى : ﴿إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون﴾[5].

وكما قال رسول الله ﷺ : «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا»[6].

ومن أسباب التكافل الاجتماعي وجود العمل لكل إنسان، فالعمل من أهم وسائل الكسب، قال عليه الصلاة والسلام : «إن أشرف الكسب كسب الرجل من يده»[7]. وقد هيأ الله الأرض وسخّرها للإنسان ﴿وسخر لكم ما في الأرض﴾[8]، وقال سبحانه : ﴿هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور﴾[9].

ومن تمام تكافل لمجتمع المسلم أن يهيئ لكل فرد من أفراده مستوى معينا من الحياة يضمن له ضرورياتها بأي وسيلة مشروعة. قال تعالى : ﴿وفي أموالهم حق للسائل والمحروم﴾[10].

ومن سمة المجتمع المتكافل في الإسلام أن يكون وسطا متوازنا ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطا﴾[11]، فلا غلُوَّ ولا تقصير، ولا إفراط ولا تفريط، وإنما اعتدال وقصد وقوام، قال تعالى : ﴿وابتغ فيما أتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا﴾[12].

حق التشغيل والتكافل الاجتماعي في الإسلام

أولا : إن حق التشغيل في الإسلام ضرورة يجب توفيرها للأفراد في المجتمع، حتى لا يكونوا عالة على هذا المجتمع فيضعف ويفكك، فقد نُهي في الإسلام عن إعطاء السائل مادامت أمامه فرصة العمل.

ثانيا : ومن التكافل الاجتماعي في الإسلام ضمان حق العامل وإنصافه بإعطائه حقّه في الأجر، وبحمايته من الاستغلال، وبتنظيم العمل، يقول الرسول ﷺ : «اعطوا الأجير حقه قبل أن يجف عرقُه»[13].

ثالثا : إن أصل التكافل الاجتماعي في الإسلام هو الفطرة الإنسانية، أي هو الوصف الذي وصف به الإسلام مباشرة. يقول الله تعالى : ﴿فأقم وجهك للدين حنيفا، فطرة الله التي فطر الناس عليها، لا تبديل لخلق الله، ذلك الدين القَيِّم ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾.

رابعا : إن التكافل الإسلامي يضمن مصلحة الفرد والجماعة، فللفرد كيانُه، ومميّزاته، وحريّاته، وحقوقه، وإبداعاته، وكل ذلك يوجد ضمن الإطار العام لمصلحة الجماعة، التي ينتسب إليها».

خامسا : إن التكافل الاجتماعي هو من الدين ومن شريعة الله عز وجل، الذي له الخلق والأمر، فهو دائم الإلزام، لا يقبل النسخ ولا التعطيل، وهو من النظام العام في المجتمع الإسلامي لأنه حق الله عز وجل الذي يعلو فوق كل الحقوق الشخصية الفردية، ولأنه ضروري لتحقيق حكمة خلق الإنسان ورسالته في الحياة، فهو واجب ديني اجتماعي، من تركه أو فرط فيه أو حاول الحيلولة دون القيام به فردا أو جماعة اعتبره الإسلام آثما.

سادسا : ويستمد التكافل الاجتماعي قوته وإلزامه من العقيدة الإسلامية وتشريعات المجتمع أي من الرقابة الذاتية للشخص، والرقابة الخارجية للشريعة، إن الشريعة الإسلامية تعتمد قبل كل شيء على وجدان الإنسان، لا على قوات السلطان، إنها ذات مهمة هي إسعاد الناس وتدبير مصالحهم، لا مراقبتهم والتدخل في شؤونهم الخاصة، والعقوبات التي شرعها الإسلام هي قليلة العدد بالنسبة لعموم الجرائم، ثم هي في نظر الكثير من العلماء كفَّارات لما ارتكب الإنسان من إثم، فيرجع إليه إذن واجب التقدم لتنفيذها عليه حتى يطهر نفسه مما اقترفه، أو هي زواجر لإصلاح حالة المجتمع، وحمايته من ضعف الوجدان الإنساني فيه.

فسلطة القانون إذن وجدانية قبل أن تكون حكومية، فتدخل الدولة في أعمال الإنسان الشخصية ضرورة لا ينبغي أن تتجاوز محلها.

إن غاية الشريعة هي مصلحة الإنسان، كخليفة في المجتمع الذي هو منه، وكمسؤول أمام الله الذي استخلفه على إقامة العدل والإنصاف، وضمان السعادة الفكرية والاجتماعية والطمأنينة النفسية لكل أفراد الأمة.

فاتباع الطاعة في الأعمال الإنسانية يجعلها أعمالا شرعية، والخروج عنها يجعل العمل الإنساني في إطار خارج عن الشريعة، ومن ثم فهو خارج عن الفطرة، وهذا السلوك الموجه لا ينال به الفرد رضا الله فقط، ولكنه حينما ينظر إليه إخوانه في الدين، ويرون فيه القدوة الصالحة يحترمونه ويرون فيه الدليل العملي لنفاذ الخطابات الإلهية فيتبعونه، وبذلك يصبح مرضيا عند الناس وذا أثر فعال في خلق المجتمع الإسلامي المتمتع بالحقوق المؤدي للواجبات.

وليكون الإنسان نفسه الحارس على ضمان العدالة ونشر الحق، لم يكتف الشارع بالتكليف بظاهر القانون والقضاء، بل كلّف الإنسان أن ينصف غيره من نفسه ولو كان القانون أو القضاء في جانبه.

وإذا كان القانون الوضعي يهتم بالمساواة، فإن الشريعة الإسلامية تهتم بتحقيق العدالة. فالمساواة تعني فقط تطبيق القانون القائم على الجميع، كيفما كان القانون وكيفما كان الوضع أو النظام المستقر في البلد، بينما الشريعة الإسلامية تقصد إلى تحقيق العدالة، ولا تعترف بأي قانون مناف لمقاصدها، وقد قال عليه الصلاة والسلام : «كل عمل ليس عليه أمرنا فهو ردٌّ أي مردود على صاحبه، فأسباب الدولة نفسها لا تكفي لفرض القانون إلا إذا كانت تبررها الغاية المقصودة من بناء الدولة وهي ضمان العدالة وتعميم الحرية لجميع المواطنين.

سابعا : إن التكافل الاجتماعي يعطي للإنسان معنى لوجوده في الحياة، ومعنى لرسالته في هذه الحياة، ومعنى لمصيره بعد هذه الحياة في الآخرة،

فالشخص المتكافل، المتآخي، المتضامن في مجتمعه، يشعر بالسلامة والاستقرار والأمن النفسي، لأنه يعرف المعنى الصحيح لوجوده ورسالته ومصيره. قال الله تعالى : ﴿أحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا تُرجعون﴾[14].

البعد الاجتماعي والاقتصادي للتكافل الاجتماعي

يتسم التكافل الاجتماعي بالبعد الاجتماعي والاقتصادي، لأنه يضمن للمواطن في المجتمع حد الكفاية أو حد الغنى، أي أنه يضمن للعامل المستوى اللائق وهو فوق حد الكفاف، أي المستوى الأدنى للمعيشة، وبهذا يضمن الإسلام بالتكافل الاجتماعي لكل فرد في المجتمع بوصفه إنسانا المستوى اللائق للمعيشة، وهو ما يوفره الشخص عادة لنفسه بمجهوده وعمله، فإذا عجز هذا الشخص عن توفير ذلك المستوى لسبب خارج عن إرادته، فإن نفقة مثل هذا الشخص تكون واجبة باسم التكافل الاجتماعي على جميع أفراد المجتمع، باعتبار كون هذه النفقة حقا لله عز وجل يعلو فوق الحقوق الأخرى، يقول الرسول ﷺ : «من ترك دينا أو ضياعا، (أي أطفالا ضائعين)، لا مال لهم فإليَّ وعلي»[15].

خلق الإنسان ليكون عالميا ومتنقلا في أرجاء الأرض حتى يكون العام كله سوقا للعمل

وليضيف الحق سبحانه للإنسان كرامة إلى كرامة وتكريما إلى تكريم وحقا إلى حقوق يقول عز من قائل : ﴿وحملناهم في البر والبحر﴾.

هذا الحمل في البر والبحر، في السماوات والأرض، قائم على قوانين يستطيع الإنسان أن يتعرف عليها بعقله، وأن يتعلمها بما أودع الله هذا الإنسان من طاقات وقوانين الحركة والروافع والجاذبية والمقاومة والطفو والضغط الجوي

والرياح وغير ذلك، طاقة العقل تكتشف القوانين والسنن والنواميس، ليستطيع الإنسان أن يحمل في البر و البحر، وأن يتعامل مع ذلك الكون الفسيح الواسع الرحيب، وليتنقل في هذا العالم، وكأن هذه الآية إشارة إلى أن الإنسان مخلوق ليكون عالميا، وليكون متنقلا في أرجاء الأرض، ليس مقصورا على مكان هو مسقط رأسه، ولا متحركا في نطاق محدود، وإنما تحمله أجواء الماء وأجواء الفضاء وأرجاء البر إلى كل العوالم التي يستطيع أن يكتشفها تسبيحا بحمد الله وفضله في الآفاق.

يقول الله تعالى : ﴿هو الذي جعل لكم الأرض قرارا والسماء بناء وصوّركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيبات﴾.

كل هذا يعلم معا، الأرض والسماء، وصورة الإنسان وملاءمته الوظيفية، وكفايته الجسدية، مع ما أودع الله في الأرض من موارد، وفي الكون من موارد، كل ذلك يعمل جميعا لكي يُعمّر الإنسان الأرض، وفي القرآن الكريم إشارات كثيرة لموارد الثروة النباتية والحيوانية والمعدنية والمائية. وما أسبغ الله على عباده من نعم ظاهرة وباطنة، وقد تحدث الفقهاء أخذا من دلالات القرآن والسنة على فضل الزرع والتجارة وفضل العمل بإطلاق، وكل ذلك إنما يهيئ للاستفادة من الطيبات، فإن الإنسان لا يُرزق إلا إذا سعى وجدّ.

لقد خلق الله قدَرا موارد الثروة وسخرها لعقل الإنسان، وحتى يستعمل طاقات أكبر من طاقاته، وقوى أكبر من قواه، وهذا هو معنى التسخير الذي كشف عنه العلم، باستطاعة الإنسان معرفة القوانين، والاستعانة بالقوانين على القوانين، بالنواميس على النواميس.

ومن هذا يتجلى أن حق التسخير حق تابع منطقيا لحقي التكريم والتفضيل، أي تسخير ما عدى الإنسان قدرة الإنسان من حيوان ونبات، وعوالم وأجرام، وأرض وسماوات وفضاءات، وما حفلت به الأرض من عطاء إلهي، وما احتضنته

في باطنها من خيرات، وما زخرت به أعماق البحار، وما يكتشفه الإنسان خارج الفضاء المسكون، لا يستثنى من هذا التعميم وهذه الشمولية حتى الملائكة الأطهار الذين سخَّرهم الله لخدمة الإنسان لنقل الرسالة الهادية إلى أصفيائه ورسله، أولئك الملائكة حملة الوحي الإلهي لإرشاد البشر إلى نهج الحكمة الذي يساعده على ممارسة التسخير والتحكم العقلاني في المخلوقات الأخرى وفي إصلاح الأرض خاصة.

أما شرعا فقد شرع الإسلام التنمية البشرية والمادية لتنمية الطاقات العقلية والنفسية والبدنية، واستثمار الموارد الطبيعية إنتاجا واستهلاكا وتبادلا وتداولا وتوزيعا، لأن كل هذا متداخل مع بعضه البعض، الإنتاج يُيسِّر الاستهلاك، والاستهلاك يفتح السبيل للإنتاج، ولفتح سوق العمل، وبذلك تكتمل الدورة الاقتصادية والدورة الحضارية فيقوم إنتاج جديد للطيبات من الرزق، زراعة وصناعة وإنتاجا وتداولا وتوزيعا. كما يُكَمِّل كل هذه الدورة لعمارة الأرض، وتداول الثروات بنسبة عادلة وعلى عموم الفائدة للجميع.

إن الإسلام لا يقيم مجتمعا نمطيا، بل إن الناس تستوي في الحقوق، وتستوي في الإنسانية، لكنها تتفاضل في الطاقات والملكات، والإسلام يزكي التنافس كما يدعو إلى التعاون لكي يتكامل الناس، ولكي يتنافسوا في نفس الوقت في الخير والبر والمعروف ﴿وفي ذلك فليتنافس المتنافسون﴾ وبذلك تتوازن الحقوق والواجبات وعلاقات الفرد والجماعة، فليس في الإسلام تطرف نحو الفردية، ولا تطرف نحو الجماعية، ولا تطرف في التسلطية الشمولية، والإنسانية العالمية تُعين الناس على التواصل وعلى التعاون واقتسام الطيبات حتى يكون العالم كله سوقا للعمل، وسوقا للإنتاج ومجالا للتبادل والتداول، ولا تقوم حواجز ظالمة بين منتج وآخر مستهلك، أو بين منتج في سلعة لقطر وبين منتج لسلعة أخرى في قطر آخر، كما يجب أن لا تكون هناك حواجز ظالمة أمام اليد العاملة

وقصرها على فئة دون أخرى، وإنما يكون التعاون والتآزر في تلك القرية العالمية التي نعيشها في زماننا.

مظاهر حماية الإسلام للعنصر البشري بالتدخل في سوق العمل لتحقيق حد الكفاية (Minimum de suffisance)

إذا كان العمل طاقة بشرية تُصرف في العمل العقلي أو الجسمي أو في كليهما معا للحصول على دخل، أو هو كل جهد جسمي أو عقلي يستهدف الحصول على أجر مالي، وهو يشمل جميع أنواع العمل اليدوي أو الفكري للحصول على مكافأة، فإن الأهمية التي يوليها الإسلام للعمل كبيرة بحيث إن المسلم الذي لا يعمل لا ينال شيئا، لا في هذه الدنيا ولا في الآخرة.

إن القرآن والسنة يؤكدان وجوب العمل في مناسبات كثيرة، ونعرض لبعض الآيات الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة الدالة على ذلك :

قال تعالى : ﴿وأن ليس للإنسان إلا ما سعى﴾[16].

﴿للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن﴾[17].

﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون﴾[18].

﴿ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾[19].

﴿فالذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة ورزق كريم﴾[20].

﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنَّهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم﴾[23].

قال مولانا رسول الله ﷺ : «ما من رزق أفضل مما كسبه المرء بيديه (العمل)، وقد كان النبي داوود يأكل من عمل يديه»[24].

من كل هذا يتضح لنا أن من أهم ما جاء به الإسلام في مجال حقوق الإنسان هو ما عبر عنه رجال الفقه باصطلاح ضمان «حد الكفاية Minimum de Suffisance» وعبَّر عنه البعض الآخر باصطلاح «حدّ الغنى Minimum de Richesse»، بمعنى أنه يتعين أن يتوافر لكل فرد بوصفه إنسانا المستوى اللائق للمعيشة والذي يختلف باختلاف الزمان والمكان والأشخاص وهو ما يوفره لنفسه بجهده وعمله، فإذا عجز عن ذلك لسبب خارج عن إرادته كمرض أو عجز أو شيخوخة، فإن نفقته تكون واجبة في بيت مال المسلمين أي خزانة الدولة أيا كانت ديانة هذا الفرد وأيا كانت جنسيته باعتباره حق الله الذي يعلو فوق كل الحقوق.

واصطلاح «حد الكفاية» أو «حد الغنى» وإن لم يرد صراحة في نص من نصوص القرآن أو السنة إلا أنه يستفاد من مفهوم هذه النصوص، وقد ورد صراحة في تعبيرات أئمة الإسلام وكذا في مختلف كتب الفقه.

1) قال سيدنا عمد بن الخطاب : «إذا أعطيتم فأغنوا»[25].

2) وقال سيدنا علي بن أبي طالب : «إن الله فرض على الأغنياء في أموالهم بقدر ما يكفي فقراءهم»[26].

3) ويقول الإمام الماوردي : «فيدفع إلى الفقير والمسكين من الزكاة ما يخرج به من اسم الفقر والمسكنة إلى أدنى مراتب الغنى» كما يقول : «تقدير العطاء معتبر بالكفاية»[27].

4) ويقول الإمام السرخسي : «وعلى الإمام أن يتقي الله في صرف الأموال إلى المصارف، فلا يدع فقيرا إلا أعطاه من الصدقات حتى يغنيه وعياله، وإن

احتاج بعض المسلمين وليس في بيت المال من الصدقات شيء أعطى الإمام ما يحتاجون من بيت المال»[28].

5) ويقول الإمام ابن تيمية : «الفقير الشرعي المذكور في الكتاب والسنة الذي يستحق من الزكاة والمصالح ونحوها، ليس هو الفقير الاصطلاحي الذي يتقيد بلبسة معينة أو طريقة معينة، بل كل من ليس له كفاية تكفيه وتكفي عياله فهو من الفقراء والمساكين»[29].

6) ويقول الإمام الشاطبي : «الكفاية تختلف باختلاف الأشخاص والأحوال».

فريضة الزكاة مظهر من مظاهر التكافل الاجتماعي في الإسلام

إن نظام الحياة الإنسانية لا يستقيم إلا بالتعاون والتناسق وفق منهج الله وشرعه.

وإن طبيعة نظرة الإسلام إلى الحياة الإنسانية، تجعل العدالة الاجتماعية عدالة إنسانية شاملة بكل مقومات الحياة الإنسانية ولا تقف عند الماديات والاقتصاديات. وإن القيم في هذه الحياة مادية معنوية، في الوقت ذاته لا يمكن الفصل بين صفتيها المتحدتين، وإن الإنسانية وحدة متكافلة متناسقة لا جماعات متعارضة متنافرة.

والإسلام يأمر بالتكافل الاجتماعي وهو يتطلب من الدولة والأفراد القيام بالتزامات إيجابية نحو الغير لمعاونة الضعفاء والحث على الأخذ بروح التعاون والإخاء.

ومن مظاهر التعاون أو التكافل الاجتماعي في الشريعة الإسلامية فريضة الزكاة، وهي الركن الاجتماعي البارز من أركان الاسلام (الركن الثالث بعد الشهادة والصلاة).

والزكاة حق المال، وهي عبادة من ناحية، وواجب اجتماعي من ناحية أخرى، ولذلك سُميت «زكاة» والزكاة نماء وطهارة، فهي طهارة للضمير والذمة بأداء الحق المفروض، وهي طهارة للنفس والقلب من فطرة الشح وغريزة حب الذات.

والزكاة حق الجماعة في عنق الفرد، وهي تعاون اجتماعي يجعل للفقير حقا معلوما في أموال الغني، فهي تكليف اجتماعي خالص، ونظامها في الجمع والتوزيع لا يُذِلُّ الفقير، ولا يجعل الغني يشعر بعزته فوقه. فالزكاة ركن من أركان الإسلام، وضرورة من ضرورات الإيمان، وأداء الزكاة وسيلة من وسائل الحصول على رحمة الله. والأمة مسؤولة عن حماية الضعفاء فيها، ورعاية مصالحهم وصيانتها، فهي تتقاضى أموال الزكاة وتنفقها في مصارفها.

وقد أمر الله تعالى بالزكاة في القرآن الكريم، وحدد بنفسه سبحانه مصارفها الثمانية، وبيَّن النبي ﷺ أموالها ومعدلاتها ونصبها.

إن نظام الزكاة ركيزة كبرى من أهم ركائز التكافل الاجتماعي الذي تدعو إليه الشريعة الإسلامية، ويضمن مستوى عاليا للوفاء بحاجات الفرد الحقيقية التي لابد منها في عيشة سوية لائقة بكرامة الإنسان.

قال الله تعالى : ﴿إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم، وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل﴾[30].

أسس فريضة الزكاة

إن اهتمام المشرع بمصارف الزكاة، ولا سيما ما كان منها متعلقا بالمصالح العامة، يبدو في ثلاثة وجوه هي :

الوجه الأول : إن المشرع الحكيم جعل الزكاة «سبيلا عقائديا» ينبع الدافع إلى أدائها من صميم عقيدة المسلم كالشهادتين، والصلاة، والصوم، والحج، أي جعلها ركنا من أركان الإسلام.

الوجه الثاني : تؤكد الزكاة تنفيذ «مبدأ التكافل والتعاون الإجتماعي والإنساني الملزم، فريضة، وعقيدة، ونظرا، وتشريعا، وعملا، حتى إذا تقاعس وازع الدين، تولت سلطة الدولة أمر الزكاة، لأنها من أعمال السيادة.

الوجه الثالث : إن الله تعالى قد أغلظ العقاب الأخروي لمانع الزكاة في قوله سبحانه ﴿والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشِّرهُم بعذاب أليم، يوم يُحمى عليها في نار جهنم، فتُكوى بها جباهُهُم وجنوبُهم وظهورُهم، هذا ما كنزتُم لأنفسكم فذُوقوا ما كنتم تَكنِزُون﴾[31].

الخصائص المميزة لفريضة الزكاة كمظهر من مظاهر التكافل الاجتماعي في الإسلام

تتميز فريضة الزكاة كمظهر من مظاهر التكافل الاجتماعي بالخصائص المميزة الآتية :

1) إن الله سبحانه وتعالى هو الآمر بالإنفاق، فهو المالك الحقيقي للكون، قال تعالى : ﴿لله ملك السموات والأرض وما بينهما﴾، ﴿قل اللهم مالك الملك﴾[32].

2) إن الإنسان هو المأمور بالإنفاق، ذلك أن دور الإنسان هو تنفيذٌ لأوامر الله ونواهيه، ودوره في الإنفاق لا يخرج عن الإطار العام في الحياة كلها بوصفه خليفة لله في الأرض، وحينما يأمر الله تعالى الإنسان بالإنفاق، فإن المالك يأمر المستخلف عنه بأن ينفق من ماله وملكه الذي وكَّله الله عليه.

3) يمكن أن يدخل ما ينفقه الإنسان في وجوه شتّى، مثل الزكاة، والهدية، والوقف، وزكاة الفطر، والكفارة، والفدية، ومهما كان وجه الإنفاق فهو مطلوب من الإنسان ومحبوب لله تعالى قليلا كان أو كثيرا ﴿لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله، لا يكلف الله نفسا إلا ما آتاها﴾[33]، فكل ما زاد عن حاجة الإنسان يستطيع أن ينفقه في أي وجه من وجوه البر.

4) حدد القرآن الكريم من ينفق عليه بقوله ﴿إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل﴾[34].

أوجه إنفاق الزكاة

ويمكن تقسيم أوجه إنفاق الزكاة إلى ثلاثة أقسام :

أولا : الأموال التي تدفع لتحقيق التوازن الاجتماعي وتوفير أسباب الحياة للفقراء والمساكين، ويشكل هذا الوجه الجانب الأهم والأوضح الذي أكدته النصوص الكثيرة والواردة في القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة، ويفهم من المعنى العام المستفاد من الآية الكريمة أن كل من كانت حاجته أكثر من دخله يستحق أن يأخذ من أموال الزكاة لكي يسدد مصاريفه الضرورية التي توفر له أسباب الحياة، وينبغي في هذا المجال تحديد الأولويات، ومراعاة الحق الأدنى للحاجات الضرورية، ورفع مستوى الأجور للعمال والأجراء إلى أن تبلغ حد الكفاية، وعدم جواز دفع أموال الزكاة للقادرين على العمل ولو كانوا فقراء لئلاَّ يعتادوا الكسل.

ثانيا : ما يصرف من أموال الزكاة ضمن ﴿وفي سبيل الله﴾ ويقصد بذلك كل أوجه الإنفاق في سبيل الخير، بما في ذلك حماية الإسلام والدفاع عنه، إذ جاءت هذه الآية في القرآن الكريم في موطن الجهاد والإنفاق على الخير.

ثالثا : ما يصرف على العاملين على الزكاة والمؤلفة قلوبهم والتحرير من الرق والغارمين وابن السبيل، ويلاحظ أن الصفة الجامعة في هذه الأصناف الخمسة هي أنهم يستحقون الاستفادة من أموال الزكاة بسبب أوصاف طارئة مثل الرق، أو مقاومة كوارث، أو مساعدة ابن السبيل، والمراد به المسافر لهدف مشروع، ويكون محتاجا إلى المال للعودة إلى بلده، ويدخل ضمن ابن السبيل كل من فقد المأوى الآمن ولو كان في بلده.

وإن تحقيق هدف التكافل الاجتماعي يعتبر واجبا دينيا للفرد، وواجبا جماعيا للمجتمع، وواجبا دستوريا للدولة، كما أن نظام التكافل الاجتماعي الإسلامي يعتبر نظاما مترابطا متكاملا متزناً، يجمع بين السعادة في الدنيا والآخرة، ويضمن النجاح الحقيقي في النواحي المادية والروحية والطبيعية والخلقية. وتشكل الزكاة جزءا من هذا النظام المتكامل ا لذي لا يطبق تطبيقا كاملا حقيقيا إلا في بيئة مصبوغة بتعاليم الإسلام، كما أن من شأن هذا النظام أن يساعد على الارتقاء بمستوى المعيشة إلى مستوى أعلى وأرفع إذ إن الشريعة الإسلامية تسعى إلى توفير حاجات الفرد الأساسية وتحقيق لائق للمعيشة بالنسبة للمحتاجين.

إن الطهارة الروحية التي يحصل عليها المسلم المزكي ترتفع به في سلَّم التقوى ومدارج الكمال، وعلى الصعيد الاجتماعي فإن التكافل الاجتماعي الذي يشد أفراد الأمة بعضهم إلى بعض، ويشعر الجميع أنهم أعضاء في أسرة كبيرة، وللزكاة دور كبير في تحقيق هذا الهدف، وإذا لم تف أموال الزكاة بمصالح الأمة والدولة تحقيقا للتكافل الاجتماعي والإنساني الملزم، أجاز المشرع فرض ما يفي لها من أموال.

خاتمة

إن بناء المجتمع على النمط الإسلامي لا يمكن أن يتم بالوعظ والإرشاد فقط، وإنا بقيام الدولة التي تصوغ المجتمع الصياغة المطلوبة. ذلك أن الدين له نظرته الخاصة للحياة، فالعبادة في الإسلام هي طاعة الله، وميدان طاعة الله أفسح من أن يُحد بمكان هو المسجد، أو زمان هو وقت الصلاة والذّكر، فإن هذه الطاعة تستوعب كل حياة المرء منذ بلغ التكليف حتى يلقى الله.

لقد اقتضت الحكمة الإلاهية أن يكون الدين الإسلامي صالحا ومصلحا للإنسانية، ملائما للطبائع البشرية، صالحا لكل زمان ومكان وافيا بالمقاصد الضرورية، والحاجية، والتحسينية، يقوم بحفظ الدين والنفس والمال والنسل والعقل، ويرفع عن الناس الحرج، ويدفع عنهم المشقة، ويفتح لهم باب الأخذ من محاسن العادات، ويحول بينهم وبين المدنّسات التي تأنفها العقول الراجحات.

«إن الشريعة مبناها وأساسها على الحكم ومصالح العباد في المعاش والمعاد ؛ وهي عدلٌ كلها ورحمة كلها وحكمة كلها. فكل مسألة خرجت عن العدل إلى الجور ؛ وعن الرحمة إلى ضدها، وعن المصلحة إلى المفسدة ؛ وعن الحكمة إلى العبث ؛ فليست من الشريعة وإن أدخلت فيها بالتأويل، فالشريعة عدل الله بين عباده ؛ ورحمته بين خلقه.

فهي بالحياة والغذاء والدواء والنور والشفاء والعصمة، وكل خير في الوجود فإنما هو مستفاد منها، وحاصل بها ؛ وكل نقص في الوجود فسببه من إضاعتها. فالشريعة التي بعث الله بها رسوله هي عمود العالم وقطب الفلاح والسعادة في الدنيا وفي الآخرة»[35].

لقد تجاوز الإنسان المعاصر التعصبات والعنصريات، بل لم يعد يستسيغها ولم يعد لها تصور مقبول في الفكر والوجدان. فقد جاءت الرسالة الإسلامية

تخاطب العقل قبل الوجدان، لأن العقل هو الآلية التي وهبها الله للإنسان ليدرك بها ويميز الحقائق بعيدا عن هوى النفس.

لأجل ذلك مكّن التقدم العلمي الإنسان من تكسير الطوق، وتحطيم القيد، وخلق اتصال دائم مستمر بين أبناء البشر، وتبديد أسباب الخلاف والنزاع، بتأسيس أرضية صالحة لبناء المجتمع الإنساني السليم.

وإذا كانت الشرائع السماوية هي مصدر كل القيم والمبادئ الأخلاقية، فإن جميعها قد أشارت وأكدت على ضرورة المحافظة على الأمن وعدم الإخلال به مع العمل على وحدة الشعوب وعدم تفرقها عن طريق التضامن والتعايش تحت مظلة السلام والاستقرار لدعم المحبة والترابط الأخوي.

والشريعة الإسلامية باعتبارها خاتمة الشرائع السماوية قد عبرت عن ذلك، حيث أشارت في أكثر من موضع بأنها تتخذ طريقها إلى السلام والاطمئنان وتركيز الحياة الإنسانية على موازين العدل والمساواة. وهكذا يتضح أن الإسلام كان سبَّاقاً في تعامله وعلاقاته مع غيره من الدول والشعوب إلى وضع الأسس الأخلاقية الشريفة للتعامل والتعايش والتساكن، مؤكدا على تكريم بني الإنسان، معتبرا الناس أمة واحدة لا فرق بين جنس وجنس، ولا بين دين ودين، فيما يتعلق بالعدل والحرية والكرامة.

قال تعالى : ﴿إنما المومنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم، واتقوا الله لعلكم ترحمون﴾[26].

لقد انتصر الإنسان المعاصر على البعدين المكاني والجغرافي فتلاشت بذلك المسافات التي تفصل بين القارات والأقطار، وبقي لزاما عليه أن ينتصر على المسافات التي تفصل بين العقول والأفكار، والتي تقيم حدودا وسدودا تحول بينه وبين التفاهم والتعارف، وأن يقيم علاقات التعاون لبناء عالم جديد ينسى فيه ما سببت له هذه الحدود والسدود من جهل الإنسان للإنسان، وتجاهله لرسالته

التعميرية في الأرض، وما تبع ذلك من حروب مدمرة ومآسي تطفح كتب التاريخ بسردها. فالإنسان خلق كما رأينا ليكون عالميا ومتنقلا في أرجاء الأرض.

إن القرآن الكريم يتوجه إلى كافة الناس بهذا التعليم الإلاهي : ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾[37].

وهذه الآية تتجاوز جميع الحدود الفاصلة بين البشر إلى وحدة التلاقي على معيار التقوى، إن هوية الإسلام هوية متعددة في ظل الوحدة، أو واحدة في ظل التعدد، فالناس كأسنان المشط، لكن يمكنهم أن يتعارفوا على هويات مختلفة.

لقد تأكدت كرامة الإنسان وحقوق الإنسان في شريعة الحق والفضل، شريعة العدل والاحسان، وما أحوج فكرنا الإسلامي المعاصر إلى أن تتضح رؤيته وتتبلور ممارسته ففي التعامل مع ينابيع الإسلام وأصوله الثابتة، ومع المتغيرات المتجددة المتسارعة المتدافعة، وفي ترتيب الأولويات حسب مقاصد الشريعة وحسب الضروريات والحاجيات والتحسينيات على ما فصَّله فقهاؤنا الأعلام.

ونسأل الله أن يهدي الإنسان الذي كرَّمه إلى أن يكون كريما لنفسه كريما لبني جنسه.

الهوامش

1) سورة العلق (1, 2, 3, 4)

2) سورة الإسراء (70).

3) سورة البقرة (29).

4) سورة إبراهيم (32 - 34).

5) سورة الأنباء (92).

6) رواه الإمام البخاري.

7) رواه الإمام أحمد.

8) سورة الحج (65).

9) سورة الملك (15).

10) سورة الذاريات.

11) سورة البقرة (143).

12) سورة القصص (77).

13) رواه الإمام مسلم.

14) سورة المؤمنون (115)

15) رواه البخاري ومسلم.

16) سورة النجم (39).

17) سورة النساء (32).

18) سورة فصلت (8).

19) سورة الأنفال (35).

20) سورة الحج (48).

21) سورة النور (51)

22) سورة الكهف (30).

23) سورة التوبة (150).

24) رواه الإمام البخاري صحيح البخاري – الجزء الأول .

25) ابن حزم – المحلى – الجزء السادس صفحة 221.

26) ابن حزم – المحلى – الجزء السادس صفحة 222.

27) الأحكام السلطانية – صفحة 122 و 205.

28) الإمام السرخسي – المبسوط – الجزء الثالث – صفحة 18.

29) الفتاوي – الجزء الثامن – صفحة 579.

30) سورة التوبة (60).

31) سورة التوبة (34 - 35).

32) سورة آل عمران (26).

33) سورة الطلاق (7).

34) سورة التوبة (60).

35) ابن القيم – أعلام الموقعين – الجزء الثالث صفحة 1.

36) سورة الحجرات (26).

37) سورة الحجرات (13).